« أبو عُبيدة بن الجَرَّاح »

« إن لكل أمة أميناً وإن أمين هذه الأمة

أبو عبيدة بن الجراح »

محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ

أسْلمَ أبُوبَكر الصِّديق وكانَ مُحباً للخَير ، فَراحَ يَدعُو أصدقاءَهُ المُخْلصينَ إلى الدَّعوة الجَديدة ، وذَهَبَ إلى أبى عُبيدة بنْ الجَراحِ وعَرضَ عليه الإسْلامَ .

أصْغَى أبُو عُبيدةَ إلى كَلام صَديقه أبى بكر ثمَّ قالَ :

ـ أرَى إن تُمْهلَنى يا صَاحبَى إلى غَد لأفكرَ فى الأمْر .

وبَاتَ أبُو عُبيدة يُفكرُ فى الدَّعوة الجَديدة بعُمق . ويُفَكرُ فى مُحمّد بن عَبد اللّه ، ذلكَ الرَّجل الصَّادق الأمين ، وتَمرُ اللَّيلَةُ وَقَد شَرَحَ اللّهُ صَدرَ أبى عُبيدَة للحقِّ وأنَار بصيرَتَهُ للهُدى ، فعَزَم على شَىء .

وفى اليَوم التَالىَ مَرَّ أبُوبكر عَلىَ صَاحبه وسألهُ عنْ مَوقْعه منَ الدَّعوة الجديدة فقالَ أبوعُبيدة :

ـ حَدثْتنى نَفْسى بمَا هُو خَيرٌ ، هيَا بنَا إلىَ صَاحبكَ .

وَدَخَل أبُو عُبيدة على رسَول اللّه ، وأعْلَنَ بَيْن يَديه إسلامُه ، وعَاهَد

النَّبى على إعلاء شَأن الإسلام والعَملَ عَلى نُصرته ، وهكذا كانَ أبُو عُبيدة منَ السَّابقينَ الأوَلينَ إلى الإسلام .

ويَشتُّد إيذاءُ المُشركينَ للمُسلمينَ ، فيشيرُ النَّبىُ إلى بَعض أصحَابه بالهجْرَة إلى الحَبَشة حَتى يَجعلَ اللهُ لَهُم منَ الشّدة مَخْرجاً ومَنَ الضّيق فَرَجاً ويُهاجرُ أبُو عبيدَة ابن الجَراح مَع نَفَر من المُسلمينَ إلىَ الحبَشة ، ويَعيَشُ معَ رِفاقه هنُاكَ فى غُربة عن الوطن والأهَل ، وفى شَوق إلى رسُول الله وإخوانه فى مكَةَ .

ويَأتيهَمُ نبَأ هجرة النّبى إلى المَدينَة ، حيثُ هَاجَرَ بعَضُ الصَّحابة ، وفى المدَينَة أنصارٌ للدِّين وأخُوة للمُسلمينَ ويَطيُر أبُوعبيدَة فَرحاً بهذا النبأ ، ويغَادرُ الحَبَشةَ معَ إخَوانه المؤمنينَ ثمَّ يُهاجرُ إلى المدينة ليلحقَ برسول الله .

وَفى المدينْة يبدأ مُجتَمعٌ إسلامىٌ جَميلٌ ، تعاونٌ وحُبٌ ، وإخلاصٌ وَوفاءٌ وسرَعَانَ مَا تأتى المُواجهُة بَيْنَ المُسلمينَ فى المدينةَ والمشُركينَ فى مكةَ ، ويكونُ اللّقَاءُ الأولُ عنْد بئر بَدر ويخُرجُ أبُوعبيدةَ بن الجَرَّاح مجُاهداً فى سَبيل اللَّه فى غَزوة بدْر ويُبلى فى المعركة بلاءاً حَسَناً ، وتكونُ الغلبةُ فى الميدان لجيَش المُسْلمينَ ، ويَلمحُ أبُو عبيدةَ أباهُ فى مَيْدان المعَركة فى صُفُوف المشركينَ . فيتحولُ عنه بسيْفه إلى مكَان آخرَ .

لكَنَّ الأبَ المشْركَ تأخُذُهُ الحمَيَّةُ فيُطاردُ ابنَه يريدُ قَتْلهُ ويَلتقى الرَجُلان أبُو عُبيدة وأباهُ وَجْهاً لوجه ، ويُوجّهُ الأبُ ضربةً قويةً ، يتَفَاداها أبُو عَبيدةَ بمهارة ، ويَفرُّ من أمام أبيه حَتى لا يكونَ سَبَباً فى قَتْله ، ولَعَلهُ يهتَدى .

ويَصولُ أبُوعبيدةَ فى المعَركة يَقَاتلُ المُشركينَ ، ثُمَّ يَلتَقى بأبيه مرةً أخْرى وجهاً لوجه . والأبُ مُصَمِّمٌ على مُبارَزة ابنه وقَتْله . ولَمْ يَجدْ أبُو عبيدة بُداً من المواجَهة ، وتَلتَقى السُّيوفُ فى عُنُف ، وفى لَمحة يُغمَدُ أبُو عبيدةُ سيْفَهُ فى صَدر أبيه ، فيَهوى الأبُ صَريعاً تَنزفُ منْه الدِّماءُ ، قَتَلَ أبُوعُبيدة أباهُ وهُو آسفٌ على ذَلكَ ، فَلقَد كانَ يَتَحاشى لقاءَهُ ، وكمْ تمنَّى لأبيه الهِدايةَ ولكنْ هَكَذا شَاءتْ الأقْدارُ .

* * *

وتُغادرُ قَريشٌ أرَضَ المعَركة وهىَ تَبوءُ بالهَزيمة ، لكنَّها تُصَمِّمُ على الثَّأر والانتقام ، وتُعدُّ نفسَهَا لمعَركة حَاسمة ، وَتأتَى غَزوةُ أحُد ، ويَقفُ النَّبىُّ قَائداً لجيش المُسلمينَ ، يُصدرُ تَعليماته للجنُود وللرّماة منَ فَوق الجَبل بعَدم مغَادرة أمَاكنهم ، ويلتَقى الجَيشانَ فى مَيدان القتَال ، ويحقَقُ المُسلمونَ نَصَراً غالياً ، ويَفرُّ المشُركونَ تاركينَ الميدانَ ، ويَنشَغلُ المسُلمونَ بجَمع الغَنَائم ، ويَنْزلُ الرُّماةُ منَ فَوق الجَبل طَمَعاً فى الغَنَائم ، لكنَّ المشُركينَ يعودونَ منْ وراء الجَبل ويهَجمون علىَ المُسلمينَ ، وسُرعانَ مَا تتغَيرُ الأحوالُ وَتسودُ الفَوضَى فى صُفوف المُسْلمين ، وتُصبحُ الغَلبةُ للمُشركينَ الذَينَ يُكثّفُونَ هُجومَهم ، ويُصوبُونَ سهامَهم نحو النّبى .

وَيلمحُ أبُوعبيدةُ منْ بَعيد رَسُول اللَّه تَسيلُ منْ وَجْهه الشَّريف الدِّماءَ ، فيطيشُ صَوابهُ ويُسرعُ إلى رسُول الله ليَذودَ عنهُ بنفَسه ، ويفتَديه بجسمه وفَى تَلكَ اللحظَة يُسرعُ أبُوبكر الصِّديق نَحو النَّبى ، ويلتَقى الرَّجُلان أمامَ النَّبى لنَجدته ونُصرته .

كَانَ النَّبِيُّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ يَمسَحُ الدَّمَ المُتساقطَ منَ وَجهِه الشَّريف وَهُوَ يُرَدِّدُ في حُزنٍ وأسىً :

كَيفَ يُفلحُ قومٌ خَضَّبوا وَجهَ نَبيِّهم وَهُوَ يَدعوهمُ إلى ربِّهم ؟!

كَانتْ حَلقَتَانِ منْ حلَقِ المغفرِ الذي يَلبَسهُ النَّبيُّ فَوقَ رأسه في المعركة قد دَخَلتا في وَجنته الشَّريفة ، والدِّماء تَنزفُ منهَا فاستأذنَ أبُوعبيدةَ أبابكر ليقومَ بنَفسه بنَزعهَا منْ وَجه النَّبي ـ صَلى الله عَليه وَسَلم ـ ، فَنَزَعَ واحدةً وسَقطتْ معَها ثَنيَّةُ أبي عُبيدَةَ ثمَ نَزَعَ الحلقَةَ الثانيةَ وَسَقطتْ معَهَا ثَنيَّةً أخرى لأبَي عُبيدةَ فَدعاَ النَّبيُّ له بالخَير ، وعَاشَ بعَدَها ، لهذَا كانَ النَّبيُّ يحبُّ أبَا عبيدة ، وكَانَ يقولُ لأصحابه :

« إن لكُلِ أمَّةٍ أميناً ، وإنَّ أمينَ هَذه الأمَّة أبُوعُبيدة بنَ الجَراح » .

* * *

ويأتي وَفدُ نجران منْ اليَمن مُسلمينَ ، ويلتَقُوا بالنَّبي ويمكثُوا في المدينة أياماً ، وعنْدَ عَودتهم سألوا النَّبيَ أنْ يُرسلَ معهمُ منَ يُعلمهم القُرانَ وأمُورَ الدِّين ، فقَالَ : لهمَ النَّبيُّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

ـ لأبعثنَّ معَكُم رَجُلاً أميناً ، حَقَّ أمين ، حَقُّ أمين ، حَقُّ أمين !

فتمنَّى كُلُّ صحابي أن يكونَ هُوَ المقصُودَ ، لكنَّ النَّبيَ كانَ يَعني أبُوعُبيدةَ بنَ الجراح وَفي خلافة أبي بَكر الصدِّيقَ ، وبَعد القَضاء علَى فتْنَة المُرتدينَ ومَانعي الزَكاة ، يُفكِّرُ الصدِّيقُ في فَتح بلادَ الشَّام ، فَنَادَى في

النَّاس بالجهَاد ، فهَرَعَ إليه المُسلمونَ وأعدَّ جَيشاً هَائلاً قَسَّمهُ إلى أرْبعة جُيوش كلُّ جَيش يقومُ بمهمة عَسكرية ، فكانَ يَزيدُ بن أبي سُفيانَ قائدَ الجَيش الأولَ ويَتجهُ إلى شَرق الأرْدُن ، وعَلى الجَيش الثاني شُرَحْبيل بن حَسنةَ وتوَّجهَ إلى البَلقْاء ، وكانَ عمرُو بنَ العَاص قَائد الجَيش الثَّالث وتوجَّهَ إلى فلسطينَ ، وكان أبُوعُبيدةَ قائدَ الجَيْش الرَّابع ووَجهته حمص وأسَندَ الصِّديقُ القيادَةَ العَامَة لهَذه الجُيوش إلى أبي عُبيدة بنَ الجَرَّاح ، وأوَصاهُم أبُوبكَر بالصَّبر والعَدْل والوَفاء بالعَهْد ، وعَدَم قَتلُ الأطفال أو الشُّيوخ أو النِّساء .

ودَخلَ أبوعُبيدةَ الشَّامَ بجيْشه ، وفَتحَ القُرى حَتى وَصَل إلى حمص ، فحَاصَرها فترةً حتى استسلمَ أهلُهَا فدخَلها مُنتصْراً . وفَزعتْ الرُّومُ عنْدمَا عَلمتْ بسقوط حمص ، وأعدَّ قائدُهاَ جَيْشاً هائلاً قوامُهُ مائتين وأربَعينَ ألفَ مُقَاتل ، وأدَركَ أبُوعُبيدةَ خُطورةَ المَوقفَ فأرسلَ إلى أبَي بكَر الصدِّيق يخبرهُ بأمر الرُّوم . ثُمَّ أرْسَلَ إلى قُواد الجُيوش الثَلاثة ليطلعَهم عَلى الموقف عنْدهُ وعنْدما وَصَل النَبأ إلى أبي بكر وكَانَ جالساً بينَ أصحابه ، فَكَّر قليلاً وشَاورَ الصَّحَابةَ ، ثُمَّ قَالَ : واللهُ لأشغلنَّ النَّصارىَ عنْ وسَاوس الشَّيطَان بخالد ابن الوليد .

كانَ خالدُ بن الوليد بالعراق يخوضُ مَعَاركَ مَجَيدة لفَتح البلاد ونَشْرَ الإسلام وأرسَلَ أبُوبكر إلى خالد يأمُرهُ بأن يَصحبَ معَهُ نصفَ جَيْشه وأنْ يتقَدَّمَ إلى الشَّام لمعاونة أبي عبيدةَ ، وأنْ يبقَى نصفَ جَيشْه الآخر بالعَراق

وأنَ يُولِّى عليه المُثَنَّى بنَ حَارثة وأن يَتولىَ خالدٌ قيادةَ الجُيوش فى قتَال الرُّوم بالشَّام .

وكَتب خالدٌ إلى أبى عُبيدةَ قائلاً : « سلامُ اللّه عليْكَ ، أمَّا بعدُ ، فقَدْ أتَانى كتابُ خليفةُ رسول اللّه يأمرنى بالسَّير إلى الشَّام والقيام على جُندها والتَولِّى لأمَرها والله ما طَلبتُ ذلكَ قطُّ ، ولا أردتُه إذ وَلَيْتُهُ ، فأنتَ عَلى حَالكَ الذى كُنتَ عليه ، لا نعْصيكَ ولا نُخَالفكَ . . ولا نَقطعَ دونَكَ أمراً . فأنْتَ سَيدُ المُسلمينَ لا نُنكرُ فَضلكَ ولا نَستغنى عن رأيكَ .

* * *

وَتولَى خَالدُ بنُ الوليد قيَادةَجُيوش المُسلمينَ ، والتَقَى الجَيْشَان فى وَادى اليَرمُوك ، وَوَقفَ أبُوعُبيدةَ يَعظُ المُسلمينَ فَى مَيْدان القتَال قَبلَ خَوض المعركَة ، مُرَدِّداً :

ـ عبَادَ اللّه ، انْصرُوا اللّهَ يَنصُرْكُم ويثَبِّتْ أقَدامكُم ، يَا مَعْشَرَ المُسلمينَ ، اصْبرُوا فإنَّ الصَّبرُ مَنجاةٌ منَ الكُفْر ، ومَرْضَاةٌ للرَّب ، ومَدحضَةٌ للعَار ، ولاَتَبْرَحُوا مَصافكمْ ولا تَخطُوا إليهم . ولاَ تَبْدأوهم بالقتَال ، وَشَرعُوا الرِّماح ، والزَمُوا الصَّمْتَ إلاَّ بذكر اللّه ـ عَزَّ وجَل ـ فى أنْفسكُم حَتى يَتمَّ أمْركُم إنْ شَاءَ اللّه .

وكَانتْ همَّةُ المُسلمينَ عاليةً ، وَدَارتْ المعَركَةُ ، الرُّومُ أعْدَادهم هائلةً ، خَمسةُ أضعَاف المُسلمينَ ، وأسْلحَتهم أكثُر لكنَّ المُسلمينَ أكثرُ ثَباتاً وشَجاعةً .

فى هذه الأثْنَاء وَصَلتْ رَسَالةٌ من المدينَة إلى أبْى عُبيدة بنَ الجرَّاح ، كَانتْ الرِّسالةُ منْ أَمير المؤمنينَ عُمَر ابنَ الخَطَّاب ، فَقَدْ لَقى أَبُوبكر الصِّديقَ ربَّهُ ، وَتولَّى عُمَر خلافَةَ الْمُسلمينَ ، قَرأ أَبُوعُبيدةَ الرِّسالَةَ ، وَفيهَا أنَّ عُمَر يُولِّى أبَا عُبيدةَ إمارةَ جَيْش الْمُسْلمينَ وَيَعْزلُ خَالدُ بنُ الوليد وَطَوى أَبُوعُبيدةُ الرسَّالةَ وأخْفَاهَا حتَى تَنْتهَى المَعَركةُ .

وَانتهتْ المعَركةُ ـ مَعركةُ اليَرمُوك ـ بالنَّصر للمُسلمينَ ، وتَقدَّمَ أَبُو عُبيدةَ بعد أنْ اسْتَقرَّ الجَيشُ ، ودَخَل علَى خَالد بن الوَليد خَيمَته ، وسَلَّم رسالَة أميرُ المؤمنينَ عُمر ، فَقَالَ خالدُ لأبى عُبيدةً بَعدْ أنْ قَرأَ الرِّسَالةَ :

ـ يَرحُمكَ اللهُ يا أبَا عُبيدةَ ، مَا مَنعَكَ أنْ تُخبرَنى حينْ جَاءَكَ الكتَاب ؟

فَقَالَ أَبُوعُبيدة : إنّى كَرهتُ أنْ أكسرَ عَليْكَ حَرْبَكَ ، ومَا سُلطانُ الدُّنيا نُريدُ .

وتَسلَّم أبُو عُبيدةَ قَيَادةَ الجُيوش بَعْدَ ذَلكَ ، وجَعَلَ خَالدُ بنُ الوَليد مسُاعداً لهُ ، ومُستشاراً عَسْكرياً له فى حُروبه . وتَوجّهَ بَعْدَ ذلكَ إلى دَمشْقَ فحَاصَرهَا عدةَ أشهُر ، ثمَّ عقَدَ مَع أهلها صُلْحاً ، وفَتَحهَا دُونَ إراقة دمَاء ، وأرْسَلَ إلى عُمرَ يُخبرهُ بالنَّصر .

وَينتَقلُ أَبُوعُبيدةَ بيَنَ مَدائن الشَّام فَاتحاً ومُنْتصراً ، وانْتَشَر الْمُسلمونَ فى تلكَ البلاد ، وأصبَحَ الأذانُ يَتَردَّدُ فى سَماء الْمُدن بالشَّام ليُعلنَ للنَّاس صَوْتَ الإسلام ، وأصبَحتْ الصَّلاةُ تُقَامُ فى كُلِّ وادٍ .

* * *

ويَعيشُ أبُو عُبيدةَ بنَ الجَرَّاحِ هُناكَ زَاهداً وَرِعاً ، ويَزُورهُ أميرُ المؤمنينَ عُمَرَ بنَ الخَطَّاب بالشَّام ، فَيصحَبهُ أبُو عُبيدةَ إلى دَارِه ، ويَجدُ عُمر أمامَهُ داراً بَسيطَةً خَاليَةً منَ الأثَاث الجَميلِ والفِراشِ الوَثير .

ويَتلفَّتُ عُمَر في أرْجَاء الدَّار ، فتَقَعُ عيناهُ عَلى سَيفٍ وتُرْسٍ وأدوَاتِ حَرْبٍ فيتَعَجبُ ويَسألُ صديقَهُ :

ـ يا أبا عُبيدةَ ، ألاَ اتَّخذتَ لنفْسكَ مثْلَمَا يَضعُ النَّاسُ ؟

فَيَرُدُّ أبُو عُبيدةَ قَائلاً في إيمانٍ رَاسخٍ وَطيبِ نَفْسٍ :

ـ يَا أمَيرَ المؤمنينَ ، هَذَا يُبلِّغُنِي المَقيلَ .

فيَقُولُ عُمَر وَهو في غَمْرة الدَّهشة :

ـ غَيَّرتنَا الدُّنيا كُلنَّا ، غَيْرَكَ يَا أبَا عُبيدةَ !

وَيَنْصرفُ عُمَرُ بنُ الخَطَّاب ويَعودُ إلى المَدينة وَقَدْ اطمأنَّ عَلى حَال الوُلاة وحَال الرَّعية .

* * *

وتَمضي الأيامُ ، وَذَاتَ عام يُنتَشرُ الطَّاعونُ ببلَدة عَمواس بالشَّام ، وبهَا جَيشُ المُسلمينَ بقيادة أبي عُبيدةَ ابنَ الجَرَّاح ، وكَانَ الطَّاعونُ خَطيراً ماتَ بسببه ألوفُ المُسلمينَ وخَشي عُمَرُ بنَ الخَطَّاب أنْ يَتعرَّضَ أبُو عُبيدةَ للطَّاعون وَهوَ قَائدٌ مُسلمٌ ذو شَأن عظيم ، ورَأى أنْ يَدْعوَ أبَا عُبيدةَ للمجيء إلى المَدينة لئلا يُصيبهُ الطَّاعونُ فأرسَلَ إليه خطاباً يقولُ فيه :

قَدْ عُرِضَتْ حَاجةٌ عندَنا ، ولا غنى فيها عَنكَ ، فإذَا أتَاكَ كتَابى هَذَا فإنى أعْزِمُ عَلَيكَ ، إنْ أتَاكَ كتَابى لَيْلاً ألاَّ تُصْبحَ حَتى تَركبَ إلىَّ ، وإنْ أتَاكَ نهاراً لاتُمْسِ حَتى تَركبَ إلىَّ » .

وَعَنْدمَا قَرأ أبُوعبيدةَ خطَابَ أميرُ المؤمنينَ ، أدَركَ مُرادَهُ وَفهَمَ غايتَهُ ، فَقَالَ فى امتنانٍ : يَرحُم اللّهُ عُمَرَ ، إنّهُ يُريدُ أن يَستبقى مَنْ لَيْسَ بباقٍ ! »

ثُمَّ كَتبَ إلىَ عُمَرَ بنَ الخَطَّاب يقولُ :

« أمَا بعدُ ، فَقَدْ عزمتُ حاجتكَ التى عُرِضَتْ لكَ فَخَلِّنى منْ عَزْمتكَ يا أميرُ المؤمنين ، فانِّى فى جُنْدٍ منْ أجْنَاد المُسلمينَ لا أرْغبُ بنفسى عنهُم » .

وَعَنْدمَا قَرأ عُمرُ رسالةَ أبى عُبيدةَ تحدَّرتْ من عينيه دَمَعْةٌ وَقَد أحَسَّ بدنُوِّ أجْل صَاحبه ، ويَشتَدُّ المرَضُ بأبى عُبيدة فيَوصى قُوادَهُ بأنَ يُدفَنُ حَيْثَ يَموتُ وَذَاتَ يَوْم فى سَنة ثَمان عشْرَةَ من الهجَرة ، وَكانَ بالأغْوار بالأردُن تَصعَد روحُه الطَّاهرةُ إلى خَالقهَا ، ويُصلَّى المُسلمونَ علَيه ويُدفنَ هُناكَ .

وكانَ أميرُ المؤمنينَ بالمدْينة عنْدمَا أتاهُ رَجلٌ يَنعى إليه وَفاة أبى عُبيدة بنَ الجَرَّاح ، فيحزَنَ عُمرُ بنَ الخَطَّاب حُزْناً شَديداً ، ويَبكىْ فراقَ أمين الأمَّة وَيَدعُو له بالرَّحمَة ، ويَذكرهُ بالخَير ، كانَ عُمرُ يَجلسُ معَ نَفَر من أصَحَابه ذاتَ يومٍ فنَظَرَ إليهم ثمَّ قَالَ : تمنُّوا .

فأخَذ القَومُ يَفكرونَ فيمَا يتَمَنّونَ ، فقَالَ رجُلٌ : أتَمنَّى لو أنَّ هَذه الدارَ مملوءةٌ ذَهباً أنْفقُهُ فى سَبيل اللّه .

وقالَ رجُلٌ آخرَ : أتمنَّى لو أنَّها مملوءةٌ لؤلؤاً وجوهراً أنفقهُ فى سَبيلِ اللّه كُلّه ، وأتصدَّقُ به .

ثمَّ قالَ عُمر : تَمنُّوا ، وكأنهُ يَرجُو مَا هُو أكثرُ .

فقالوَا : ما تَدرِى ما نَقُولُ يا أميرَ المؤمنينَ ؟

فقالَ عُمرُ : ولكنِّى أتمنَّى لو أنَّ ملِء هذه الدَّارِ رِجالاً مِثلَ أبى عُبيدةَ بنَ الجَرَّاحِ .

فَقَدْ كَانَ عُمَرُ بنَ الخَطَّاب يَعرِفُ قَدْرَ الرِّجال ، وكانَ يعرِفُ جَيداً قَدْرَ أمينُ هذه الأمَّة ، أبُوعُبيدة بنَ الجَرَّاحِ . رَحمهُ اللّه .

« رضي الله تعالى عنه »